الجيل الجديد :
انتفاضا على اللامبالاة والصمت

محيي الدين محمد

لا يأخذ التحول الفكري شكله الناضج الا مستقرئا او حالما . اما الحالات الاخرى التي يتخذها الفكر ، فلا تعدو ان تكون تطبيقا او مسايرة او اتفاقا . واحيانا اخرى لا يجد الفكر مثل هذه الارض الصلبة ، فيضيع في التناقض بين الحلم والمسايرة ، او يقبع —مع احساسه بالخطورة— في انتظار شيء جديد يستطيع ان يزيل هذا الجدار المرن القائم.

منذ مات العقاد ، وتوقف طه حسين ، وانتهى ذلك الجيل الرائد الذي استطاع ان يضيء حياتنا فترة طويلة، وقع الجيل الجديد في محظورين : اولا، عدم القدرة على احتلال مكان الرواد ؛ ثانيا ، العجز عن التلاؤم مع الجديد الحادث في ارضنا العربية . لقد ظهر الرواد في فترة يمكن تسميتها بفترة « القلق المصيري » ، حينما كانت الامة فاقدة لاتجاهها، لا تعرف اين حقيقتها، واين المصدر الغني الذي يمكّنها من العيش بقوة كما كانت الدنيا تعيش.

ولم يكن نمو الحس الرومنطيقي الذي ظهر في ادب المنفلوطي والرافعي الا صورة من صور العصيان والتمرد ، مهما كان فيها من يأس وخذلان . فالضمير الذي رأى مؤخرا ان الحياة مؤلمة ، ولا تستحق ان تعاش ، لكل ما فيها من تحطيم للقيم والاخلاق وما فيها من فساد وتنكيل بالابرياء والبسطاء ، ليس ضميرا سكونيا . انه ضمير متحرك ، وجد ان العمل امر مستحيل ، ولم يكن هناك سوى الاحتجاج الشفوي ، ثم الموت .

هكذا كانت اسلحته ، ومن اجل ذلك لا بد من تبرير تلك الحركة التي يأنف شبابنا اليوم من الاستزادة بها ، بل وحتى التفكير فيها ، على اعتبار انها مرحلة ساذجة لا بد من تخطيها ، حتى قبل ان يحدث شرف التعرف اليها .

ولم يكن ذلك الموقف عقليا وفلسفيا حتى يؤثر التأثير المنطقي العقلي في اذهان الشبيبة بالدرجة التي تجعل الخطوات التالية ممهدة وقائمة فوق منطلق سليم؛ بل كان موقفا عاطفيا، عطل الى حد بعيد نمو الافكار لدى الاجيال التالية . وهم يختلفون هنا في تشاؤمهم عن التشاؤم العقلي الذي قد يمثله فرانز كافكا في اوربا . فالخلفية التي تسند كافكا ، عقلية في محتواها ، وان ظهرت غالبا في صورة مأساة عاطفية. فجوزف ك والمسخ يتمتعان اولا بتفوق شديد في الاحساس ، رغم انهما يعانيان حالة عقلية . وهما لا يخرجان عن حدود هذه الشدة العاطفية الا بكثير جدا من الحذر والدقة . وما يصيب جوزف ك في الحقيقة

بالذعر اكثر من اي شيء آخر ، ليس الا عدم قدرته على الفهم .

فلما جاء الجيل التالي لكافكا في اوربا، وجد الارض ممهدة، والمشكلة قائمة وواضحة، ولم يكن يملك في مثل هذه الحالة الا ان ينطلق من النقطة السابقة ، ويبني عليها قيمه الجديدة . امـا عندنا فلم يكن تأثير المنفلوطي والرافعي عقليا ، بل كان تأثيرا عاطفيا في اقصى شدته ، ويشبه تأثير « فيرتر » في الشباب الالمـاني . ومن اجل ذلك تمزقت اكباد الاجيال التالية التي قرأت « بول وفرجيني » و « ماجدولين » و « السحاب الاحمر » ، الا انها لم تتخذ من ذلك موقفا فلسفيا .

رغم ذلك ، كان الاتجاه منطقيا وصادقـا مع نفسه ؛ فالاحتلال كان جاثما على ارض الوطن بتقنولوجيته القادرة المخيفة ، وكان الناس يحلمون بطاقات اوربا الهائلة ، ويقارنون حالتهم اليائسة بتلك، ويدركون بالتقابل مدى امحال الوضع الحضاري الذي عليه الوطن، ومدى افلاسه. واذاً فلم يكن التعبير عن التحول نحو اوربا، الا يقظة في الروح البرجوازية التي انتبهت مؤخرا الى صلاحياتها، والى قوتها المدخرة،فاخذت تفيد منها على اوسع نطاق.

ثم جاء الرواد ، فوجدوا ان الغرب قد اثر في الجماهير تقنولوجيا وتاريخيا منذ اوائل الحملة الفرنسية على مصر . وكان ذلك يعني ان اي اتجاه مخالف سيبوء لا محالة بالفشل او الاعراض الجماهيري التام . وليس غريبا في هذه الحالة ان يولي الرواد وجوههم نهائيا شطر اوربا . واذا كانوا قد استطاعوا بغير قليل من الجهد ان يركزوا احيانا على التراث العربي ، فليس خضوعا لموقف او اخذا بالطرف القصي من الموازنة، بل كان في الحقيقة تطبيقا عمليا من ذهن متغرب على مادة عربية ؛ وبعبارة اخرى ، كان ذلك محاولة للافادة من التكنيك الاوربي في الفكر ، بتطبيقـه على محتوى اقليمي ومحلي . اي انه في النهاية كان تسليما من الرواد بصحة الطريق الذي اختاره الناس عفويا .

من هنا كانت الاهمية الفائقة التي بناها الجيل التالي للمنفلوطي والرافعي على ما كتبه طه حسين والعقاد والزيات وغيرهم ، ممن حاولوا نقـل الادب الاوربي وترجمته وتعريفه . وقد تلاءمت هذه الاهمية الفائقة مـع الاحترام العميق الممزوج بالفضول، الذي احست به جمـاهير الناس تجـاه المنجزات الآلية والصناعية الغربية التي بدأت تدخل حياتهم . فانعكست هذه الثقة بقدرة اوربا ثقة اخرى ميكانيكية في مقدرة عقلها وادبها وفلسفتها.

وبالمقابل ، اخذت تنشأ بين النخبة المفكرة صيغة اخرى ، اساسها عدم الثقة بالتراث العربي ، لفرط ما اكد المثقفون السابقون على اهمية الاخذ من اوربا، وترجمة فكرها . ولم يكن ذلك في حد ذاته شططا . بل كان صورة اخرى من صور الضياع العقلي الذي سببه هذا الترجح العنيف بيننا وبين الغرب .

ثم لم يستطع الجيل الجديد – لفرط هذا الاحساس بالضياع – ان يحتل مكان الرواد

الذي كان شاغرا طيلة هذه المدة . فالسبب الذي جعل اولئك الرجال العظام روادا (حاجة العصر الى الفكرة التي يحملونها) هو معكوس السبب الذي يطيح بالجيل الجديد .

ان الكتّاب الجدد لا يستطيعون ان يحملوا رسالة الرواد ، وان يبقوا في اماكنهم في نفس الوقت ، اذ انتهت حاجة العصر العقلية من الاستزادة باوربا فكريا، او اوشكت ان تنتهي . فالحركة الشعرية التي بدأت مثلا باتخاذ الشعر الاوربي هاديا ، تفلس الآن ، ولا تجد نصيرا واحدا . (لست اتكلم عن حركة الشعر الجديد التي يمثلها السياب ونازك الملائكة وعبد الصبور وغيرهم ، بل اتكلم عن حركة خدشت هذا الوجه الصميمي للشعر العربي ، وتمثلت في المنظومات النثرية . وهي حركة آمنت تماما بان المثال الحقيقي للشعر لا بد ان يكون اوربيا تماما ، لهذا السبب نحس باعمالهم كما لو كانت ترجمة سقيمة لنص شعري غربي) . اما الحركة الشعرية الاصيلة فقد تغذت باحسن ما في النماذج الاوربية للشعر ، وانتهت من ذلك الى عدم النظر اليه مرة اخرى ، فكأنها تزودت منه بطاقة الدفعة الاولى وحسب . واستطاعت معظم انماط الفن الاخرى التخلص من هذا الرباط القاسي الذي يشدها الى الغرب ، فتخلص منه فن الرسم او كاد ، والمحاولات الجادة التي قام بها عبدالهادي الجزار ليست الا تأكيدا على الجانب المحلي المحض الذي يجب البدء به دوما ؛ اما محاولات يوسف كامل التي حملت وجها اوربيا شديد الصلة بالحركات السريالية والتكعيبية ، فتفقد صلاتها بالجمهور والمثقفين على وجه السواء ، وتظل اعمالا مكانها الطبيعي جدار متحف لا يزوره احد .

وكذلك الرواية والقصة القصيرة ؛ لقد افادت من التقنية الأوربية ، ولم تعد لها بها من صلة اكثر من صلة التأثر السطحي المؤقت. فالمحاولات التي كتبها الشبان الجدد في فترة سبقت هذه الفترة التي نطرحها للتقييم ، محاولات محلية ممتازة، فيها من الاصالة والجدة ما يعطيها طابعا خاصا بها. فادوار الخراط، ووحيد النقاش، وابو المعاطي ابو النجا، وسليمان فياض ، وغالب هلسا ، وغيرهم ، قد فرضوا بقوة رؤية جديدة ذاتية على الاحداث والاشخاص لا اثر فيها من اوربا، غير اثر القراءة الواعية الفاحصة للاعمال الجديدة في الغرب، وما يتركه هذا التأثير من لمحة فنية او نظر متكامل او تغيير في القالب ، وهكذا .

رغم ذلك ، ما زال التطور الفكري في الغرب يحيط بالعقل العربي ويأسره؛ فان اقل ما يعطيه الاحساس عند قراءة عمل مثل « البحث عن الزمن الضائع » لبروست ، او « يولسيز » لجيمز جويس ، هو عبث ما يحاوله مفكرونا . فهذا الطغيان الجاثم الذي يرقد على صدورنا منشؤه اولا واساسا الاعتقاد الجازم بعدم القدرة على الاحاطة وتعمق الحياة بالشكل الغربي ، وذلك من شأنه ان يدفع بنا الى ازمة في الثقة تدعونا الى الوقوف من كل قصيدة او قصة موقف الناقد الذي يقيس هذه القصة او القصيدة بمقياس اوربي . فان

الناقد الذي فقد اصوله الثقافية ، ولم تعد بينه وبين التراث من الصلات مـا يحتم عليه ان يناقش العمل الفني من خلال فهمه الخاص وذوق عصره ، يجد من السهل عليه ان يطبق المفاهيم الاوربية على هذه الاعمال . وهكذا ينشأ لون قـاتم من الوان المعيار الذوقي او العلمي ، يدب في فكرنا ويحصرنا ، ويهز الثقة التي نحملها في نفوسنا هزا عنيفا قاسيا .

غير ان نداء « العودة الى التراث » ، الذي نشأ واهنا خافتا، اصبح الآن يجد له متسعا من الوقت للنمو والزيادة ، بنمو الوعي به ، ونمو عملية تحقيقه واعادة طبعه ونشره . ولم يتسنّ لهذا النداء القومي ان يعطل فقدان التوازن هذا بين التراث كارضية وخلفية ، وبين الفكر الاوربي كصوت للعصر . فمهـما كان التراث، ومهما كانت ضرورته واهميته الفائقة، الا انه بقية من فكر مضى وانقضى ، قـامت عليه اوربا مرة ، ثم طورته ، وجددتـه وغيرته ، وبنت فوقه اطنانا من المعارف والخبرات والقدرات ، ثم انتهت الى ما هي عليه الآن ، حيث يكفينا اذا شئنا التزود بشيء ما ، ان نجلبه من هناك ، فنوفر على انفسنا عبء الدرس والتجربة والخطأ .

ثمة اذاً ما يدعونا الى الحذر ؛ فالدعوة الى التراث يظنها الشبان تخليا عن التقنولوجيا الاوربية، لذلك يتساءلون احيانا عن قيمة التراث الآن. والخطورة تنشأ حيث يظن المثقفون ان التراث بديل عن الحضارة الحديثة، يملك القدرة على الانشاء والبناء، كما يملك قدرة التقعيد النظري والفلسفي .

غير ان ذلك محال . فالعقل الذي وصل الى الدرجة الخمسين او الستين، لا يستطيع ان يعود الى ارقام الآحاد الصغرى التي بدأ بها فكرنا القديم .

من هنا يتضح سوء التخطيط الذي وضع لاعـادة نشر التراث ؛ فالكتب الادبية والفلسفية والتاريخية جزء من البعد التاريخي والنفسي لا يمكن اقتطاعه او شجبه من حياتنا المعاصرة ، لان حداثتنا لا تعني الا استمرارنا وتطورنا على اصول مغرقة في القدم. والفكر الادبي والفلسفي المعاصر لا ينسخان ، ولا يملكان ان ينسخا ، التراث الادبي والفلسفي القديم ، لان لهما معا – مهما كان اختلافهما ، بل وتعارضهما – قدرة على النفاذ الى التكوين الانساني ، والتأثير فيه .

وليست كذلك كتب الكيمياء والجغرافيا والجبر والرياضيات القديمة في تراثنا؛ فالعقل قد تخطاها وانتهى منها ، واقام فوقها صروحا اخرى اكمل واشمخ . فما من شك ان علوم الرياضيات البحتة التي ندرسها الآن في جامعاتنا ومدارسنا ، تزري بالمعـادلات الاولية البسيطة التي فكر بها الذهن العربي في منشأ تعرفه الى علوم الجبر والحساب .

لم تكن الازمة التي احس بها الجيل الجديد في مقتبل حياته ، الا موقفا نشأ عن هذا التقابل الذي حدث بالضرورة بين التقنولوجيا الغربية والفكر العربي، مما خلق، بالضرورة

ايضا ، ذلك البعد الانهزامي والمؤقت .

وما كان في طوق الجيل الجديد ان يحطم هذا التناقض بمزيد من مواجهة الذات ، والوعي بالموقف ، حيث كان ، في ازمة بحثه عن ذاته ، ملتفتا اكثر الى دواعي البناء الشخصي ، والاستزادة من فروع المعرفة التي اتته كالطوفان من اوربا . ولم يكن التفاته ذلك الى دواعي تثقيف ذاته، الا زيادة في الاحساس بالتناقض الحياتي والفكري والنفسي.

وما ان قامت الثورة العربية في مصر حتى واكبها سريعا ذلك التيار القومي الذي بدأ واهنا ضعيفا ، ثم انتشر في الوطن كله كالنار ؛ فقد استطاعت الثورة ان تمد الذهن العربي المتناقض بمنطلق جديد ، عندما ادخلت التقنولوجيا الغربية على اوسع مدى ، ثم لم تجد ما يدعو الى ان يكون هذا متناقضا مع الدعوة الى الاعتماد على الذات فيما يخص الثقافة .

بل لقد حدث ما هو اخطر من ذلك ، اذ استطاعت الدولة، بايديولوجيتها المختلفة عن الغرب الرأسمالي ، ان تحصر الاستعمار في كل مكان من اجزاء الوطن ، وان تكشفه ، وان تدلل على عقم مخططاته الاقتصادية والسياسية ؛ ثم لم تجد ان من شأن ذلك ان يوقف الاعتماد اقتصاديا وتقنولوجيا على هذا الغرب الرأسمالي ، فالانجازات الفكرية التي حققتها الدولة من حيث لم تخطط لها ، شجعت الجيل الجديد على اقامة صلح دائم بين تطلعاته هو الخاصة القائمة على الفكر القومي وبين المنجزات الآلية التي يستوردها من الغرب المرفوض .

الموقف الفكري

يشعر الجيل الجديد من الكتّاب انه عاجز تماما عن التلاؤم مع التقدم الذي يحدث في الوطن ؛ فقد أُخذت منه المبادرة ، وتُرك ليدور في حلقة مفرغة لا طائل تحتها . بل لكأنما ارادت الدولة له ان يدور في هذه الحلقة ، عندما استجابت لتهليل اليمين ، الذي تمثل في المسايرة الجمعية التي قام بها كتّابه تأكيدا للثورة ، فاعطت له صلاحيات لم يكن يحلم بها ، اذ اصبح كتّاب اليمين المتطرف رؤساء لتحرير المجلات الادبية، وصاروا كتّابا دائمين في هذه المجلات، يصيبون الدولة الاشتراكية من حيث يدرون او لا يدرون بكثير من سهامهم الطائشة السامة ، ويفتون في عضد الجيل الجديد ، ويوقعونه في التناقض ، عندما يكتشف هذا الجيل ما تؤدي اليه المسايرة والاتفاق من نتائج ، تبلغ حد اجازتهم وعدم التعرض لهم بعقاب او حساب ، رغم انهم ينخرون في بناء الدولة الاشتراكية .

ولم يكن ذلك من الدولة ايمانا باليمين المتطرف ، او رغبة في احياء الافكار التقليدية التي انتهت بنهاية الفهم الديمقراطي القديم الذي كان يسمح لليمين القوي ان يحطم ويبعثر بصيلات اليسار الضعيف وجذوره . بل كان تعاونا منها مع من وجدته اسرع الى الاتفاق والمسايرة، في وقت كان طلب الاتفاق فيه تكتيكا ثوريا ، يعضد من جبهة الثوار، ويوطد مركز الثورة . ولم يكن من المهم وقتئذ ان يكون الاتفاقيون من اليسار المتطرف ، او

حتى اليسار الليبرالي ، فمن شأن التدقيق باختيار الزملاء في تلك المرحلة الحرجة ، ان يؤخر ، بل ويجمد ، التآزر والتعضيد الذي ارادته الحركة وطالبت به في شدة .

اكان السماح لليمين بالاستمرار في احتلال هذه المناصب الاعلامية والفكرية الكبرى ، مكافأة او جائزة لهم على مبادرتهم الاولى ؟

مهما كان الامر ، فقد احس الجيل الجديد من الكتّاب بخيبة امل ، وبانه صار جيلا مرفوضا و عاجزا ، وقد دفعه عجزه، وعدم قدرته على مجابهة الامور بشكل فردي ، الى الانكفاء على ذاته ، بدون ان تغويه الاتجاهات المختلفة لليسار ، الذي طرح قيمه — ربما للمرة الاولى — امامه .

لقد امحى ، او كاد ، ذلك التوق والحلم القديم بالاعتراض والاحتجاج والرفض، وهي الاسلحة التي تحملها بين يديهـا الاجيال الجديدة ، في اعلانها عن السخط ضد الاوضاع القائمة ، وصفيت بمنتهى البساطة تلك المعارك التي كانت تتم قبل ذلك بكثير من العجيج والصخب ، وكانت الاجيال الجديدة تجد فيها مرتعا خصيبا للبروز والشهرة ؛ وانتهت ، او كادت ، تلك المساجلات الخالدة بين اجيال توشك ان تموت ، ولا شيء في ذهنها سوى ثبات القديم وجموده، واجيال اخرى تضع الحياة والقيم الجديدة موضع التساؤل والتحقيق.

وتم ذلك بسرعة دفعت بالجيل كله الى مجرد المراقبة ، مبهور الانفاس بما يحدث ؛ اذ لم تعد الدولة اخيرا في حاجة الى ايمانه باليسار ، ولا لكفاحه من اجل اقرار هذا اليسار المتطرف او المعتدل . فالدولة قد اقامت من المؤسسات والاجهزة الداعية الى الاشتراكية ما يكفي لزيادة نمو وعي الطبقات الشعبية ، وبالنسبة للدولة ، لم يكن الجيل الجديد المؤمن باليسار الا جزءا صغيرا وضئيلا مـن قدرة هذه المؤسسات والاجهزة ، ولا يهم التغاضي عنه ، او لفظه ، ما دامت بعض وسائل الاعلام تقوم بعمله .

ما الذي كان يُنتظر حدوثه للجيل الجديد من الكتّاب ، بعد ان شهدوا بانفسهم قدرة اليمين المتطرف على احتلال اماكن الاشراف والتوجيه في بعض المؤسسات والاجهزة الاعلامية ، وبعد ان احسوا ان المبادرة قد ضاعت من بين ايديهم ، وانهم اصبحوا اخيرا في مركز عبثي لا يسمح لهم بان يكونوا — حتى على الاقل — في نفس مراكز الرواد السابقين ؟ اكان منتظرا ان يتحولوا الى يسار آخر اكثر تطرفا ، لمجرد اعادة المبادرة الى ايديهم ؟ ام كان تحولهم الى اليمين (المشرف على القطاعات الفكرية) امرا متوقعا — ما دامت تجمعات اليمين قد استطاعت ان تقوم بخدمات شخصية متبادلة، وان تقوم بحملات فكرية شديدة وصاخبة ضد جميع انماط اليسار، مما بلبل الموقف تماما امام الجيل الجديد؟

ان الحاجة الى الانتماء ، وهي حـاجة قصوى بالنسبة لاجيال الكتّاب ، يوقفها هذا الاتجاه العشوائي ، القائم على غير ما مخطط او نظرية ، بالاعتماد على اجيال متفسخة كانت

تؤمن بالنظام القديم دفاعا عن مصالحها ومطامعها البرجوازية ، وسارعت الى « الايمان » بالجديد ، دفاعا عن استمرار وزيادة هذه المصالح والمطامع . وهي الزيادة التي لم تبخل بعض الوزارات مطلقا باقرارها وتأكيدها ، اعترافا منها بالجميل .

هذه الحاجة العميقة المعطّلة الى الانتماء ، تبرز الآن في صورة تجمعات ادبية صغيرة تزجي الوقت بالثرثرة في العموميات والنوادر والاخبار، اذ اكتفى الجيل بان يكون تآزره منصبا على خلق صلات « شخصية » جديدة ، واطلاق طاقاته المكبوتة في نفس البركة الآسنة التي يطلق فيها الشعب طاقاته ، وهي السخرية والتشهير والنكتة .

اذاً ، ان المخطط الذي وضعته الدولة في مرحلة سابقة ، من تحطيم للتناقض الذي احس به الجيل بين الاعتماد على التقنولوجيا الغربية وبين الايمان بمقدرات العقل العربي ، ومن نشر وتوسيع لقاعدة الاعتقاد الجازم بالادب القومي ، ينخر فيها هذا الاتجاه الاخير لوضع صلاحيات لا نهاية لها في يد اليمين المتطرف ، وترك الاجيال الجديدة في عماء العجز التام عن التلاؤم ، بسبب هذا الاضطراب الجديد في الخطة .

الموقف الارضي

ثم قامت الدولة اخيرا فيما يشبه الحركة غير المتوقعة ، باغلاق معظم المجلات الادبية التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، واضطر الجيل الذي كان يجد ان عليه شرف ان يكافح الاذهان اليمينية الراسخة في هذه المؤسسات ، ان يبحث له مرة اخرى عن مصدر يصب فيه طاقاته المتفجرة ، عوض ان يصاب مرة اخرى بعجز حيوي يدفعه دفعا الى الصمت وايثار العزلة .

بيد ان محاولة البحث ذهبت هباء؛ فالمؤسسات والاجهزة الباقية لم تعد تستطيع تحمل الضغط الذي تحول اليها ، باغلاق المؤسسات الاخرى ، فضلا عن انها تعبر اصلا عن اتجاهات لا يجدها الجيل الجديد منسجمة مع تطلعاته، ويجدها القائمون على هذه المؤسسات والاجهزة فيصلا تقاس به الاعمال المقدمة ، ولا يمكن السماح بما هو مختلف او متعارض بالظهور . فبعض هؤلاء المسؤولين عن الاجهزة التي امنت شر الاغلاق حتى الآن، يعرفون ايضا ان سلامتهم الشخصية وطموحاتهم ،تدعوهم الى هدهدة اليمين،لا الانتماء اليه ولا مهاجمته.

من جهة اخرى ، يشعر بعض هؤلاء المسؤولين عن دوائر الاعلام انها تعبير قبل كل شيء عن السلطة القائمة ، وانهم موجودون في اماكنهم تأكيدا لهذا التعبير الذي يجدونه – هم – اكثر ما يؤمّن تطلعاتهم، ويرسخ الارض تحت اقدامهم . وهم يشعرون بالتالي ان الثقة التي اولتها لهم السلطة بتركهم في مناصبهم الاعلامية لا بد ان تُردّ منهم بجميل آخر ، يجدونه في هذا الانسياق الجارف بالانتماء ، ثم تجاهل او رفض بعض الدراسات والافكار ، التي يجدون فيها جديدا يصيب فهمهم الخاص « للديمقراطية الفكرية » بالذعر.

ولا بد ان منشأ هذا الذعر هو التطلعات الطبقية الباقية والمتأصلة فيهم ، منذ كانوا ممثلين حقيقيين للبرجوازية النامية ، ومنذ اصبحوا — بعد الثورة — نماذج تحاول ان تخفي هذه التطلعات بطلاء براق قلنا عنه انه الانسياق الجارف بالانتماء ، متصورين ان من شأن ذلك ان يرفع درجات الثقة التي اولتها السلطة لهم .

وهكذا ، وبعد ان اغلقت معظم المجلات الادبية ابوابها ، وجد الجيل نفسه في موقف الصمت الذي فرض عليه ، بدون ان تكون له يد في ذلك . فالصمت النابع عن الوعي موقف اخلاقي، يعدّ بالرغم من سلبيته حالة كمون واعٍ ، لا بد ان تنفجر عاجلا ام آجلا.

نخرج قليلا عن التعميم : ان الكتّاب المبدعين من الجيل الجديد يستطيعون، بقليل من الجهد ، ان يصبحوا منتمين ، بدون ان يكون انتماؤهم بالضرورة موقفا خلقيا واضحا . فالشاعر او كاتب القصة ، مهما كان موقفه من الثورة ومن الديمقراطية ومن قضايا الحرية، يستطيع ان يبلغ صوته بسهولة الى الجماهير ، ويستطيع ان ينفذ الى دوائر الاعلام والنشر بدون ان يثير القائمين عليها . فمن طبيعة العمل الفني الغموض او الرمز او الاحالة او ، على الاقل ، تجنب الوقوع في الاعلان الصائت الواضح .

فلو ترجمنا عملا ابداعيا ، « كالفرافير » ليوسف ادريس مثلا ، الى لغة غير فنية، اعني لغة نثرية واضحة ، لما كان من الممكن ابدا ابلاغها الى الجماهير ، طالما ان صلة التبليغ لم تزل في ايدي هذه البرجوازية المرتعدة — رغم ان الدافع الذي الجأ الجمهور الى قبول « الفرافير » الفنية ، سيكون نفسه الدافع الذي يلجئهم الى قبول « الفرافير » غير الفنية.

اما الكاتب الناثر والناقد فان موقفه اكثر سوءا ، لانه يستخدم الاعلان والمجاهرة ، بدل الرمز والكناية ، لذلك تكون دراساته اكثر خضوعا للفحص والتنقيب ، رغم انها من حيث التأثير اقل بدرجات كبيرة من الشكل الفني .

ولا بد ان قصور حركة النقد الادبي عن ملاحقة الاعمال الفنية راجع ، الى حد ، الى هذا الحظر الباطني الذي فرضته العقول البيروقراطية ، وارادت له ان يستمر على الدوام . فكل ما كتب عن « الفرافير » حتى الآن، لم « يستطع » ان يكشف الرموز التي استبطنها يوسف ادريس في صلب عمله المسرحي ، لان الغباء البيروقراطي كان قادرا على تفويت الرمز ، وان لم يستطع سوى ملاحقة الشروح الموضوعة عن هذا الرمز !

ولا شك ان ما اراد يوسف ادريس ان يقوله لم يكن مغلفا بكل هذه السدود والاسوار ، لان الرموز التي استخدمها كانت ابسط بكثير من رموز اخرى استخدمت وكشفت ، واعلن عنها (نذكر منها ، على سبيل المثال ، الرموز التي استخدمها يوسف الشاروني في قصته المفزعة « الطريق الى المعتقل ») ، ولاحقها بعض النقاد — حتى في تلك المرحلة السوداء التي عاشتها مصر قبل الثورة . فما اخرس النقاد لم يكن ، مطلقا ، عجزهم

عن تفتيح مغاليق هذا العمل المسرحي ، بقدر مـا كان هو الذعر الذي انتاب تلك البيروقراطية الغبية ، فانسحب ميكانيكيا على النقاد في صورة مجهود عبثي يقومون به، ولا يستطيعون ابدا ابلاغه الى الآخرين .

من جهة اخرى ، دفع هذا الموقف النقـاد الى ايثار السلامة بالصمت المطبق ، وعدم التعرض الا لمـا هو بسيط وساذج وبعيد عن اثارة هذه الموضوعـات التي تحتمل الجدل والتأويل . ولم يكن الصمت هنا — كما قلنا سابقا — موقفا دعا اليه التزام او وعي مسبق، بل كان صمتا فرضته عليهم ظروف يجدونها اكثر احتمالا للتعرض لمخاطرة سوء الفهم، بتأثير تلك العقلية المنحرفة التي كانت تحكم بعض الاجهزة والمؤسسات الفكرية .

الموقف الفردي

الاخلاص العميق للثورة عاطفة نشأت في قلب الجيل الجديد ، زادها الوعي بالمنجزات الصناعية والتطورية كما وكيفا . فـالمفكر الشاب الذي رأى النور ، ذهنيـا ، بعد الحرب العالمية الثانية، رأى ايضا مخازي الحكم السابق ومآسيه، ووعى مقدار التخلف الذي عليه الوطن من الناحيتين السياسية والاقتصادية، وقدّر في باطنه — حتى قبل ان تقوم الثورة — مدى مـا سوف تتحمله من مشاق ومتاعب ، في وطن عـاث فيه الاستعمار والاحتكار الداخلي ، وحطما مقدراته ومعنوياته .

وما ان قامت الثورة حتى وجد الجيل الجديد نفسه مندفعا في تيارها ، مؤازرا لهـا ومستعدا بكل طاقاته لخدمتها . وكان يدرك ان احياء الوطن يعني ايضا احياء الروح والعقل ، ووضع الحرية والديمقراطية والعدالة موضع التحقيق والتنفيذ . وكان ذلك يعني ان سنوات الاحال والفقر العقلي قد ذهبت ، وان نضب الديمقراطية سوف يُستبدل بازدهارها، ما دام الحكم لم يعد وقفا على طبقة ارستقراطية يؤازرها استعمار خارجي مقيم.

غير ان الثورة لم تستطع ، في قمة انشغالها بالتغيير والتطوير ، ان تعنى بهذا الفرخ الضئيل الذي يتصايح مهللا ، ثم مطالبا بحقه في التعبير عن ذاته . وكان هذا التجاهل منها امرا حتمته الضرورة ، ولم تملِه خطة او اتجاه .

وكما قلنا ، ادى هذا الموقف الصعب الى ان ينشطر الجيل في اتجاهين ، وجد الاول منهما ان الاخلاص يدعوه الى الاتفاق بشكل نهائي مع الثورة ، حتى لو ادى ذلك الى تحوله نهائيا الى موقف يتسم بالمسايرة ، وعدم التعبير في حرية عن الذات ، وعن الخارج ؛ ووجد الثاني منهما ان الظروف لم تعد ملائمة بعد ، كي يطالب بما رفض الشطر الاول المطالبة به . فالقسم الثاني يعرف طبيعة الدوافع التي اثرت في القسم الاول ، فجعلته يختار ذلك الموقف الذي يصفه هو بانه لا يخلو من تأثيرات انتهازية وشخصية ونفعية ، ويعرف ايضا ان المطالبة بالحرية الليبرالية مجازفة خطرة لا تسلم من عواقب انتكاسية شديدة . من ثم ، لم

يكن الصمت الذي اندفع اليه – واعيا هذه المرة – الا انتظارا لما ستتمخض عنه الامور.

فلو وضعنا الاتجـاه اليميني المتطرف الذي يعلن عنه بعض المسؤولين عن الاجهزة والمؤسسات الفكرية ، مما يدفع الادباء الجدد الى الصمت ، جنبا الى جنب هذا الموقف الواعي الذي يجبرهم على اتخاذ الموقف الفاحص، اكثر منه الموقف المعلن – وجدنا ان قضية اخلاص هذا الجيل امر لا شك فيه . فالدواعي الى التمرد كثيرة ، وكذلك دوافع الرفض – وهو الموقف الطبيعي الذي ينجم عن الصمت المفروض –، غير ان الايمان بالثورة يثبت انه اكثر عمقا وتأصلا رغم كل شيء .

ان المقارنة التي ما زالت تطرح حتى الآن بين الحريات السياسية والعقلية قبل الثورة ، وبعدها ، لتدل اولا على غربة الجيل الجديد عن محتوى ومفهوم الحرية الموجهة . فالجيل الجديد الذي عـاش الصراع بين الاحزاب ، وادرك ان الحرية لا تعني سوى القدرة على المعارضة ، وعلى الاعلان عن هذه المعارضة بكافة السبل والوسائل ، يستغرب انموذج هذه الحرية الجديدة – التي ينبغي النظر في كافة الابعاد الاقتصادية والنفسية والسياسية ، وابعاد التحديات الموجودة في الخارج والداخل ، حتى يمكن تبريرهـا لفترة قصيرة وخسب من فترات التاريخ ، اي حتى تستطيع الثورة تأمين نفسها داخليا وخارجيا ، وحتى تتمكن من ضمان استمرارها ، وخلق جيل جديد مؤمن وواعٍ ، يكون درعا ضد الانتكاسات المفاجئة ، او ردود افعال اليمين الطبقي .

فالجيل الجديد قد عايش الصحافة الحزبية التي كانت تقوم في وجه الحكم القائم وتوجه له النقد علانية ، بل وتصيبه احيانا في مقتل ، وعايش ايضا النظم البرلمـانية التي كانت الديمقراطية تمارس فيها احيانا، بشكل قد يسمح بنشوء فكرة الديمقراطية البرلمانية في ذهن الجيل الجديد المأخوذ بسحر هذه الحرية . (كان ذلك يحدث في اضيق نطاق ، وتحت ضغوط شديدة وقاسية ؛ بل لم يكن يتسنى لهذه التيارات الضئيلة بالظهور الا بشكل فردي وحـانق ، لان الحكم والمعارضة كانا يمثلان في الحقيقة مصلحة رأسمالية واقطاعية واحدة . لذلك سطع الضوء على هذه المحاولات الفردية ، وظهرت كما لو كانت تعبيرا عن بطولات متحررة عظيمة) . وقد دفعته هذه المعايشة الى تصور ان الحرية الليبرالية هي افضل انماط الحرية السياسية وصورها ، واكثرها قدرة على تقديم الخدمات اليه في ظل الظروف المثالية التي تهيئها .

غير ان ذلك كان بالنسبة للدولة الجديدة امرا محـالا ، اذ كان يعني ايضا السماح للرأسمالية والاقطاع واليمين المخرب ، وللاستعمار ايضا ، ان يطرح قيمه ومفهوماته على الجماهير ، وكان ذلك يهدد كل انتصارات الثورة بما هو اشد بلاء من الفشل .

فالتحفظ الاول الذي وضعه الجيل نصب عينه ، كان متعلقا بهذه الحرية الجديدة التي

وجدها عبئا ثقيلا لا يستطيع تحمل ثقله ، حتى لفترة زمنية قصيرة. ولم يكن المدّ المساير الذي حدث في جميع دوائر الاعلام ، بصفتها مملوكة للدولة ، الاتحفظا آخر تعلق بهذه الملكية التي وجدهـا مختلفة كامل الاختلاف عن طموحاته الخاصة ، التي وضعتها في ذهنه الطفل سلطة اخرى قديمة ، قامت على افتراض صراع الطبقات ، وان لم تكن في حقيقتها تعبيرا عنه . ولا بد ان نلاحظ ان مفهومه الخاص عن الحرية لم يأتِ نتيجة تطبيق هذه الحرية في العهد السابق ، بل جاء نتيجة تعديل ذهني او طوبوي لها . فلما تغير نمط الحرية الجديدة ، ولم تكن مطلقا لتمثل نزوعاته الطوبوية في الحرية ، بدأ يقف من هذا الاتجاه موقف المتسائل غير الفاهم .

وهكذا دُفع الجيل الى اتخاذ موقف لم تكن له فيه يد ، فبدل ان تكون الفترة الجديدة فترة ازدهار ونشاط جم وعميق ومتسع ، ضاقت الدروب فجأة امامه ، وتمكن بعض المتسللين من الامساك بخيط اريادنه ، واستطاعوا ان يصلوا الى المكان الذي بوسع بعض اجهزة الدولة ان تراهم فيه ، وان تثق باخلاصهم ، فتكافئهم مكافأة المخلص المؤمن.

تجد الاجيال الجديدة غذاءها دوما في الحضّ على افكار جديدة متطورة تمثلها ، وفي الهجوم الشديد على كل ما هو قديم وتقليدي ، والوقوف منه موقف الرافض ، على اعتبار ان التقليدية امر يخص الماضي ولا يخص الحاضر . وليس ذلك ، بابسط الكلمات واشيعها، الا طبيعة عقلية وبدنية ونفسية موجودة في هذا الجيل ، لا يستطيع ولا يملك ان يغيرها، لانها جزء من حياته ، وجزء من التطور والتقدم الذي يعايشه ، ويؤمن به ،ويطمئن اليه .

كيف يسلك مثل هذا الجيل اذاً في مجتمع يحس فيه ، في كثير من الاحيـان ، ان فمه مكمم ، وان حرية المرور قد اعطيت لخصومه وحدهم ؟

كيف يسلك مثل هذا الجيل وهو يعرف تمامـا ان المرحلة التي افترضت التفات الدولة الى امور اخرى اكثر اهمية واشد خطرا قد انتهت، وان من الضروري لها ان تعمق صلاتها به ، كما عمق هو صلاته بها ؟

كيف يسلك مثل هذا الجيل الذي تتفجر طاقاته الابداعية والنقدية الكامنة فيه ، بدون ان يجد لها مصرفا هادئا يحملها برفق ، ولا يتوه بها او يبددها فتمتصها رمـال اللامبالاة والرفض ؟

الم ينته ، بعد ، ذلك الافتراض البيروقراطي الذي يظن النقد جريمة ، والكشف عن الذات امرا لا يغتفر ، وحرية القول فوضوية يجب بترها ؟

ان ايمان الجيل الجديد بالثورة يدفعه دفعا الى طلب تنقية الجو الذي تتنفس فيه الفئات اليمينية في الفكر والثقافة ، فتفسده وتجرثمه ، وتدفعه الى ان يطالب بمجالات للنشر

لا تنتمي اطلاقا الى الاجهزة والمؤسسات الحكومية التي يقوم فيها العقل البيروقراطي مكان الرقابة القاسية التي تحكم بمدى مصالحها وتطلعاتها .

وتدفعه ايضا الى ان يطالب ، باسم هذه الثقة ، بعدم تجميد الموقف الذي حدث بعد انهيار بعض جبهات اليمين الضاربة في مجلات كانت تنطق باسم الدولة ، على اعتبار ان من شأن هذا التجميد ان يمدّ في فترة القلق النفسي الذي يحس به هذا الجيل .

من جهة اخرى، تعلم الدولة تماما ان حماية ظهرها تتطلب منها الوثوق بالجيل الجديد، وترك حرية التصرف وحرية الحركة في يده هو ، ما دامت الزعامات والافكار الجديدة سوف تنشأ من بين هذا الجيل .

ملاحظة اخرى لا مفرّ من ذكرها ، وهي ان الاجيال الجديدة من الكتّاب تختلف عن الاجيال القديمة التي كانت تنتمي الى الاحزاب السياسية تعبيرا عن طموحات برجوازية ؛ فالاجيال الجديدة ناشئة جميعا من الطبقة الفقيرة ، او المتوسطة الفقيرة ، واذا كان بعض افرادها قد حقق بعض تطلعاته البرجوازية ، فهو بعض قليل ، وجد ان الانتماء السريع يحقق له ذلك . اما الغالبية فلا تحمل مثل هذه التطلعات ، لان الاخلاص العميق للثورة كان هاديا لها في حماسها الشديد للتطور والتغيير والانقاذ الذي تقوم به الدولة .

انقسم الجيل الجديد – وهو جزء واحد من جزئين – الى ثلاثة اقسام : اولا ، الجيل الذي وجد الجواب في ظل نظام الحكم الشيوعي ؛ ثانيا، الجيل الذي رأى الجواب في ظل نظام الحكم الاشتراكي المحلي؛ ثالثا، الجيل الصامت الذي لم يجد منفذا للآن (وهو الغالبية).

فبالنسبة للقسم الاول ، لا احسبني مغاليا اذا اطلقت عليه اسم « الجيل المتصالح » ، لتحوله جميعا الى التيار الثاني ، اما ايمانا منه بان مرحلية النضال تقتضي منه التنازل عن احلامه جميعا ، واما رغبة حقيقية بالعمل على نصرة الثورة .

اما القسم الثاني فقد انقذ حياته ، وضمن عدم القلق وعذاب التردد ، بهذا الالتزام المبكر الذي اندفع اليه ، مؤمنا (وهو الغالب) او مداهنة (وهو الاقل) .

وبالنسبة للقسم الثالث – الذي اقتصرنا على مراقبة سلوكاته – فانني اعتقد جازما ان الصلاحيات الموضوعة بين يديه عظيمة وقادرة ، وسوف يمكن الافادة منه على اوسع واعمق نطاق ، اذا تمكنت الدولة ، مؤمنة ، من التغلب على المحاذير التي يسميها هو « تحفظاته » . ذلك لان ايمان هذا القسم الثالث لا يقلّ ان لم يفق ايمان القسمين الآخرين، ولان من يملك القدرة والشجاعة على اتخاذ موقف الصمت البالغ في مرحلة كان فيها الالتزام كسبا افادت منه جميع العناصر التي تقدمت بنفسها الى الدولة ، يملك ايضا القدرة والشجاعة على الالتزام بدون ادنى اعتبار لمدى الكسب او الخسارة التي تحيق به شخصيا من جراء هذا الانتماء الحر الذي لا اهداف له .